الباب السابع

الجار بين المدح والذم

الفصل الأول: مدح الجار

الفصل الثاني: ذمّ الجار

الفصل الأول

مدحُ الجارِ

لعلَّ موضوعَ مدحِ الجارِ يتغذىٰ علىٰ العاطفة ، ويتعاملُ مع لحظاتِ الأنس التي يتعرضُ لها مَنْ يكونُ جاراً إن كانَ شاعراً أو أديباً ، أو عالماً ، وإذ ذاك يرسم إحساسه في ذاكرة الزمن ، وعلىٰ فم التاريخ كي يحيكها للدنيا ، وكي تبقىٰ أنشودة نشوىٰ على شفةِ محبّي الفضائل والخصائل الحميدة علىٰ مرّ الدُّهور والأعوام .

ـ ولعلَّ من أبدعِ ما رسمتهُ يد التَّاريخ الأدبي الجميلِ ، تلكم الصُّورُ العجيبةُ النّادرةُ لامتداحِ المهاجرين إخوانَهم الأنصار الذين آووا ونصروا ، فحقّ لهم منَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في قولهِ : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ

أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1]

[الحشر : ٩] .

ـ وفي أدبنا العربي نماذج رائعة في مضمار امتداح الجار ، فمن صور المدح ، ما نراه عند النابغة الذبياني الذي يوجّه إلىٰ الجارِ عند انقضاء مدّة الجوار ، فكانتِ الذّكرىٰ الطيّبة ، وهمساتُ الإحسان تندّي جميل المحسنين من الجيران ؛ ويمدحُ النابغة عند رحيله جيراناً تركهم ، فيقول :

لا يُبْعِدُ اللهُ جيرانـاً تـركتهـمُ ... مثلَ المصابيحِ تجلو ليلة الظُّلمِ
لا يبرمون إذا ما الأفق جلّلَهُ ... بردُ الشتاء من الإمحال كالأُدمِ[2]

ـ ويمتدحُ بشر بن أبي خازم جمعاً منَ النَّاس أحسنوا الجوار فيقول :

---

(١) مَنْ أرادَ التوسع والاستزادة من هذا المجال ، فليرجع إلىٰ كتب السيرة النبوية يجد فيها مبتغاه ، وليرجع ـ إن شاء ـ إلىٰ كتابنا رجال مبشرون بالجنة يجد فيه ما يسره أيضاً بإذن الله .

(٢) ديوان النابغة الذبياني (ص ١٠١) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف بمصر .

في فتيةٍ لا يُضام الدَّهر جارُهُم همُ الحماةُ علىٰ الباقين والسَّلف

ـ ومن آثارِ العربِ الأدبيةِ في العصرِ الجاهلي في امتداحِ الجار ، ما قاله عُبَيد بن عبد العزىٰ السّلاماني :

أولئك قومٌ يأمنُ الجارُ بينهم ويشفقُ مِنْ صولاتهم كلّ مخفر
مرافيدُ للمولىٰ محاشيدُ للقرىٰ علىٰ الجار والمستأنسِ المتنوّر[1]

ـ ومن بدائع روائع آدابهم في هذا المجال قول عمرو بن أحمر الباهلي :

إذا نـزلَ الشتـاءُ بـدارِ قـومٍ تجنَّـب جـارَ بيتهـم الشتـاء

ـ وفي ديوانِ الحطيئة نجدُ تسجيلاً لمكارم الأخلاق في امتداح الجار ، ومما يُستجاد له في هذا المجال قصيدة بائية يذكر فيها المحسنين إلىٰ الجار :

ردُّوا علىٰ جارِ مولاهم بمهلكةٍ لـولا الإلهُ ولـولا فضلُهم ذهبا
لن يتركوا جارَ مولاهم بمتلفةٍ غبراءَ ثمَّتَ يَطْووا دونه السَّبا

---

(١) انظر : قصائد جاهلية نادرة (ص ١٣٢) .

ـ وعندما يصلُ إلىٰ ممدوحه يصفه بإغاثة الجار فيقول :

أخرجتَ جارهمُ منْ قعر مظلمة لو لم تغثه ثوىٰ في قعره حِقبا[1]

ـ وفي جولةٍ أخرىٰ يمتدحُ الحطيئة بني كليب بأجمل ما خلَّد ذكراهم في تاريخ امتداحِ الجار ، إذ خلع عليهم أصنافاً منَ المحامدِ ، وذكرهم بالفضل ، وكل مكارم الأخلاق ، فقال :

لعمرك ما المجاورُ في كُليب بمُقضىٰ في الجوار ولا مُضاعِ
هـم صَنـعٌ لجـارهـمُ وليسـتْ يـدُ الخـرقـاء مثـلَ يـدِ الصنـاعِ
وجـارُهـمُ إذا مـا حـلَّ فيهـم علـى أكنـافِ رابيـة يفـاع[2]

ـ وفي أشعار طفيل الغنوي وقفاتٌ آسراتٌ في امتداحِ الجار ، وقد لجأ ذات مرّة هو وجماعة من قومه إلىٰ بني كلاب ، فأسبغوا عليهم حسنَ الجوار ، وكرم الأخلاق ، وكثرة المعروف ، ثُمَّ بعدَ ذلك لحق بقومه ، وخلَّدَ مآثر بني

---

(١) ديوان الحطيئة (ص ١٢٨) .
(٢) ديوان الحطيئة (ص ١٣٧) .

كلاب بأبياتٍ طوّقهم فيها بقلادة من جمان الذِّكرِ الحميد ، مدىٰ الدهور والأزمان فقال :

جزىٰ اللهُ عنّا جَعْفراً حينَ أزلقتْ ... بِنا نَعْلُنا في الواطئينَ فزلَّتِ
همُ خلطونا بالنفوسِ وألجؤوا ... إلىٰ حجراتٍ أدفأتْ وأكنّتِ
سنجزي بإحسانِ الأيادي التي مضتْ ... لها عندنا ما كبّرتْ وأهلّتِ[1]

ـ وهذه الأبياتُ مشهورةٌ معروفةٌ لدىٰ العربِ في الجاهلية والإسلام ، حتىٰ وردَ أنَّ سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه لم يجدْ للأنصار شبهاً في إيوائهم للمهاجرين ، وإيثارهم إلا هذه الأبيات ، عندما أرادَ أنْ يذكر فَضْلَ الأنصار ، ولم يزدْ شيئاً علىٰ إنشادِ القطعة أمامهم ، عالماً بما في هذه الأبيات من مكارم الندىٰ ، وندىٰ المكارم ، وكمال الأخلاق ، وامتداح الجار وإيوائه والإحسان إليه .

* * *

---

(١) ديوان طفيل الغنوي (٩٨) .

الفصل الثاني

ذمُّ الجارِ

ـ في الفصلِ السَّابقِ ، ذكرنا نتفاً مما جاءَ في مدح الجار وامتداح الجوار ، وإتماماً للفائدة ، وإكمالاً للمتعة ، أحببنا أنْ نشفع ذلك الفصل بفصل آخر فيه ضده ، كي يحلوَ كتابنا ، ويصلح للمذاكرة ، وتعظم فائدته بإذن الله ، فمن المثير والممتع أن نقْرن ضدين في قَرَنٍ واحد :

ضـدّان لمـا استجمعـا حَسُنـا والضِّـدُّ يظهـرُ حسنـه الضِّـدُّ

ـ وما دمنا قد قرأنا وعلمنا أنَّ هناك مدحاً للجار الوفي الكريم ، فلا جرمَ أنَّ هناك ذمّاً للجار الذي لا يعرف ماهية وقيمة الجار .

ـ وفي آدابنا العربية قديمها وحديثها وقفاتٌ حلوةٌ مع ذمّ

الجار هي أقربُ إلىٰ الهجاءِ والعتابِ والانتقاص ، ومن أمثلة ذلك في ذمّ الجيران المتساهلين في حقوقِ الجار ، والذين اعتراهمُ الجُبن ، وأقعدهم الخوف ، قولُ بشر بن أبي خازم :

ذُنابىٰ لا يفونَ بعهدِ جارٍ ... وليسوا ينعشون لهم فقيرا

وفي ديوانِ أميرِ شعراءِ العصر الجاهلي امرىء القيس ، نجدُ هجاءً وذمّاً لبني نبهان الذين لم يفوا بحقّ الجار والجوار فيقول :

دعْ عنك نهباً صِيْحَ في حجراتِهِ ... ولكن حديثاً ما حديثُ الرّواحل
كأنَّ بني نبهان ألوتْ بجارهم ... عُقَابُ تَنُوفىٰ لا عُقَاب النواعل

ـ وعند عنترة نجدُ ذمّاً للجار ، وتحذيراً من مجاورة اللئام الذين ذلَّ جارهم ، ويدعو إلىٰ الرحيل والابتعاد عن هؤلاء فيقول :

ولا تجاوزْ لئاماً ذلَّ جارُهُمُ ... وخلِّهم في عراض الدَّار وارتحلِ
لا يشربُ الخمرَ إلا مَنْ له ذممٌ ... ولا يبيتُ له جارٌ علىٰ وجلِ

ـ وتبدو طبيعةُ ذمّ الجار واضحةَ المعالمِ في شِعْرِ الحُطيئة الذي يذمُّ مَنْ قصَّرَ في جواره فقال :

ألـمْ أكُ جـارَكـمْ فتـركتمـونـي لكلبـي فـي ديـاركـم عـواءُ
فلمـا كنـتُ جـاركـم أبيتـم وشـرّ مـواطـنِ الحـب الإبـاءُ
ولمـا كنـتُ جـارهـم حبـونـي وفيكـم كـان لـو شئتـم جِباءُ[1]

ـ هذا وأبياتُ الحطيئة السينية مشهورة في ذمّ الزّبرقان بن بدر عندما احتج لبغيض وعذره ، ثمّ ذمَّ الزبرقان وهجاه ، وأظهر هوان جاره الذي طال وهو بجواره فقال :

ما كانَ ذنبُ بغيضٍ أنْ رأىٰ رجلاً ذا فـاقـة فـي مستـوعـرِ شـاسِ
جاراً لقومٍ أطالوا هون منزله وغـادروه مقيمـاً بيـن أرمـاس

ـ ويذمُّ بشرُ بنُ أبي خازمٍ أحدَ الذين غدروا بجارهم ، ويؤكد له أنه غدّار من أهل الغدر فيقول :

غـدرتَ بجـار بيتـك يـابـن لامٍ وكنـتَ بمثـلِ فعلتهـا جـديـرا

ـ ويذمّ بشر بن عليق الطائي الذين لا يمنعون الجار ، ولا يوفون بذمته :

---

(١) ديوان الحطيئة (ص ٩٨) .

وما تمنعونَ الجار منكم بذمةٍ تحوط ولا توفي دماؤكم دما[1]

ـ ومن طرائفِ القصص الجميلِ في ذم الجوار ما جاءتْ به المصادر ، من أنَّ أبا الأسود الدؤلي ، كان ينزلُ في البصرة في بني قشير ، فكان يُرجَمُ بالليل لرأيه في علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فيصبح فيشتكي فيقولون له : اللهُ يرجُمُك .

فيقول : لو رجمني اللهُ لأصابني ، وأنتم ترجمونني ولا تصيبون . وقال :

ألا مَنْ يشتري داراً برخصٍ كراهةَ بعضِ جيرتها تُباعُ[2]

ـ وقد سَخِرَ الشُّعراءُ والأدباءُ ، وذمّوا الجار الهزيل في الندىٰ والمكارم ، فهذا أحدهم يقول :

---

(١) قصائد جاهلية نادرة (ص ١٨٨) .

(٢) انظر : وفيات الأعيان (٢/ ٥٣٥) ، وإنباه الرواة (١/ ٢١ و ٢٢) ، وتاريخ العلماء النحويين للمفضل بن محمد بن مسعر التنوخي المعري المتوفي سنة (٤٤٢ هـ) تحقيق د . عبد الفتاح محمد الحلو (ص ١٦٨) .

لا يأملُ الجارُ خيراً منْ جوارهم ولا محالةَ من هزءٍ وألقابِ

ـ ومنْ نماذج ذمّ الجار وهجائه وخذلانه ، ما أورده أبو تمام الطائي في حماسته ، من شعر البرج بن مسهر الطائي الذي تهكّم بجيرانه تهكُّماً واضحاً ، وطرق في ذمِّهم بما يشبه المدح ، وذلك زيادة في السخرية والتهكم فقال :

فنِعْمَ الحيُّ كلبٌ غير أنّا رأينا في جوارهمُ هَنَاتِ
ونعم الحي كلبٌ غير أنّا رُزينا من بنين ومن بناتِ
تركنا قومنا من حرب عامٍ ألا يا قومِ للأمرِ الشتاتِ
فإنْ نرجع إلى الجبلين يوماً نصالح قومنا حتىٰ الممات[1]

ـ وقد نجد ذمَّ الجار في صور كثيرة في أدبنا العربي ، فهذا أحدهم يبيع بيته ، ويبتعد عن مكان إقامته لوجود جار مذموم الخصال والفعال ، وعندما جاء اللومُ والعتابُ منْ أصدقائه أجابهم قائلاً :

يلومونني أنْ بعتُ بالرخص منزلي ولم يعلموا جاراً هناك ينغِّصُ

---

(١) ديوان الحماسة (١/ ٣٥٩) .

فقلتُ لهم كفّوا الملام فإنما بجيرانها تغلو الدّيار وترخصُ

ـ وقال غيره في هذا المعنىٰ :

اطلبْ لنفسك جيراناً تجاورهم لا تصلح الدارُ حتىٰ يصلح الجار

ـ فكم منْ رجلٍ من أهل الفضل والمكارم هجر داره ليفارقَ جاره ، ويكفَّ عن نفسه ، وعن أهله بوائقه وشروره وآثامه .

وإنَّ جارَ السُّوءِ منَ المصائب الكبرىٰ في هذه الحياة ، والجار السُّوء معضلة ، بل داءٌ عضال أو مرض خبيث ، وقد تكون الأذية طبعاً لهذا الجار ، فيكلمه الناس أن يكفَّ أذاه عن جيرانه ، ولكن لا يستجيب لهم ، بل يزداد أذية ، ولا فائدة من نصحه وعلاجه :

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير منَ الرمضاء بالنار

ـ ولهذا نجد أنَّ عمرَ بنَ الوردي يدعو إلىٰ اختيار الجار أولاً فيقول :

جاورْ إذا جاورتَ بحراً أو فتىٰ فالجارُ يشرفُ قَدْرُه بالجار

ـ وفي عصرنا الحالي يرسمُ لنا محمود سامي البارودي

سوء الجوار ، فقد ابتلاه الله بجارة مقلقةٍ للراحةِ ، تبدِّدُ ضوضاؤها وجلبتُها أفكاره وخيالاته ، فلا بدعَ إذا سخط عليها ، وبرم بها ، ونفثَ ما يعانيه من ثِقل دمها ودم صبيتها ، ترىٰ ماذا قال البارودي؟! :

إلىٰ اللهِ أشكو طولَ ليلي وجارةً ... تبيتُ إلىٰ وقتِ الصَّباحِ بإعوالِ
لهـا صبيـةٌ لا بـارك اللهُ فيهـمُ ... قِياحَ النواصي لا يَنَمْنَ علىٰ حالِ
صواريخ لا يهدأن إلا مع الضحىٰ ... منَ الشَّرِّ في بيت منَ الخيرِ ممحالِ
تـرىٰ بينهـم يـا فـرّقَ اللهُ بينهـم ... لهيبَ صِياحٍ يصعدُ الفلك العالي
كـأنَّهـم ممـا تنـازعـنَ أكلـبٍ ... طُرِقن علىٰ حين المساء برئبالِ
فَهِجْنَ جميعاً هيجةً فزعتْ لها ... كلابُ القرىٰ ما بين سَهْل وأجبالِ
فلمْ يبقَ من كلبٍ عقورٍ وكلبةٍ ... من الحي إلا جاء بالعمِّ والخالِ
وفزّعتِ الأنعامَ والخيلَ فانبرتْ ... تجاوب بعضاً في رغاءٍ وتصهالِ
فقامتْ رجالُ الحيّ تحسبُ أنَّها ... أصيبتْ بجيشٍ ذي غواربَ ذيّالِ
فمِنْ حاملٍ رمحاً ومنْ قابضٍ عصاً ... ومنْ فزعٍ يتلو الكتابَ بإهلالِ
ومن صبيةٍ رِيعتْ لذاك ونسوة ... هوائم دون البابِ يهتفن بالوالي
فيا ربِّ هَبْ لي منْ لدنك تصبّراً ... علىٰ ما أقاسيهِ وخذهم بزلزالِ